زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

مدينتي قسنطينة وسطيف بين جسور معلقة وأماني مرجوة "ريح يوسف" لعلاوة كوسة أنموذجا.

The cities of Constantine and setif between suspended bridges and desired aspirations "Riho Youssef" by Alawa Koussa as a model.

أ. زاهية بوجناح
جامعة مولود معمري -تيزي وزو(الجزائر)
zahiaboudj88@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/12/01 تاريخ القبول:2022/12/04 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص باللغة العربية:

تعدّ الرواية أقرب الفنون الأدبيّة بالمجتمع، فهي تحتوي القضايا الإنسانية بكل أنواعها، ولقد شغل الفضاء المكاني حيّزا كبيرا في البناء الفنّي للرواية؛ لما له من دور في تمثيل حياة الفرد في صورة تعبيرية تكشف فيها عما يمرّ به الفرد في حياته.

وسنحاول في دراستنا تسليط الضوء على مدينتي قسنطينة وسطيف من خلال رواية "ريح يوسف" للرّوائي والناقد الجزائري "علاوة كوسة"، الّذي أشار إلى مدينة قسنطينة على أنّها مدينة الجسور والفضاء السياحي الّذي جمع الأصدقاء على موائد المحبّة، وكشف عن تلك الآمال المستوطنة في قلوبهم والّتي لمّت شملهم بمدينة سطيف.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ الأحلام المؤجلة؛ رمزية المدينة؛ الأماني المرجوة؛ المضمر الفضائي.

Abstract :

The novel is the closest literary art in society, as it contains humanitarian issues of all kinds, and the spatial space occupied a large place in the artistic construction of the novel; Because of its role in representing the life of the individual in an expressive form that reveals what the individual goes through in his life.

In our study, we will try to shed light on the cities of Constantine and Setif through the novel "Riho Youcef" by the Algerian novelist and critic "Alwa Koussa", who referred to the city of Constantine as the city of bridges and the tourist space that gathered friends at the tables of love, and revealed those hopes that settled in their hearts that They were reunited with the city of Setif.

Keywords : novel ; deferred dreams ; the symbolism of the city ; desired wishes ; cosmic implied.

مقدّمة:

يتأسس البناء الفنّي للشكل الرّوائي على مجموعة من العناصر المتمثلة في (الزمان- الشخصيات-المكان)، يمثل الأول _الزمان_ الخطية الّتي تُوثق من خلالها الأحداث، وتحدّد الفترة الزمنيّة الّتي تدور فيها القضية المتمحورة عليها، أمّا الثاني _الشخصيات_ فهو المؤشر الّذي يحرّك الأحداث، في حين يمثّل الثالث _المكان_ الأرضية الّتي تدور فيها أحداث القضية المتناولة؛ وسنحصره في دراستنا في الفضاء الّذي يعدّ من العناصر

الأساسيّة والفنيّة المشكلّة للبنية الروائيّة، ومن غيره لا يمكن للأحداث الروائية أن تتكوّن لأنّ الفضاء أهمّ أرضية تتحرك عليها الشخصيات وتجري عليها الأحداث.

تربط بين الرواية والمدينة علاقة استكشافية؛ تتجسد في تمثيل السرد الرّوائي لسحر المدينة وبعدها الفكري الخيالي بعيدا عن وصف الموقع الجغرافي والمفهوم الحضاري؛ فالرّواة انصب اهتمامهم على تمثيل صورة المدينة في بعدها الجمالي، وجعلها أداة لرصد أفكارهم ونظرتهم الاجتماعية والثقافيّة. فكيف تجسّدت صورة المدينة في المتن الروائي؟ هل كانت مكانا مرجعيا أم أنّها كانت فضاء متخيلا ذو بعد جمالي؟ ما الفضاءات الّتي اعتمدها الرّوائي علاوة كوسة في نصه الرّوائي؟ وما الأبعاد الّتي كشفت عنها؟ وما السبب من وراء اختيار تلك الفضاءات دون غيرها؟

1-قسنيطنة مدينة الأحلام والإبداع: تعدّ الرّواية سيدة الأجناس الأدبيّة والسّباقة لتناول التطوّرات الّتي تطرأ على حياة الفرد؛ لأنّها "ألصق الفنون الأدبية بالمجتمع، وهي تمثّل صورة عاكسة للإنسان داخل المكان، لذلك فقد شغلت الأماكن كالمدينة والقرية والريف حيّزا كبيرا في الرّواية العربيّة، وذلك لدورها الكبير في نقل الواقع، وتصوير هموم الإنسان وهواجسه وأفكاره، وهذه الأماكن جاءت في الرواية العربية بين القبول والرّفض، جسّدت موقف الإنسان العربي من المكان"[1]. وكثيرا ما يقع اختيار الكاتب على فضاء المدينة كخشبة لتحريك أحداث نصه الروائي؛ لما له من مميزات وخصائص؛ ولعلّ أهمّها الانفتاح الّذي يسود المدن وشوارعها.

لقد احتلت فضاءات مدينة قسنطينة حيّزا كبيرا في النّص الإبداعي؛ ويرجع ذلك إلى ما عرفت به المدينة فهي من بين المدن الجزائرية العريقة الّتي تمتلك آثار وتاريخ حافل بالحضارات؛ إنّها مدينة أدهشت زوارها وفتحت نفوس الشعراء والأدباء للإبداع وترديد مزاياها وسحرها الطبيعي الّذي أذهل وأدهش المقبلين عليها؛ و"سميت مدينة قسنطينة بهذا الاسم نسبة لمؤسسها القيصر المسيحي الأول قسطنطين، إذ أنّها كانت قد هدمت بشكل كبير أيام تلك الحرب، الّتي وقعت قبل اعتلاء هذا الحاكم العرش ببعض أعوام، بين مارينتيوس، ومنافسة لاسكندروهو فلكي برهن للأهالي على اعترافه بجميلهم لأنهم بايعوا ملكا بعد موت مارينتيوس مباشرة، فأمر بإعادة بناء الوكر الافريقي، وسماه باسمه، وكانت قسنطينة قبل تلك الفترة تحمل اسما ساميا، ربما فينيقيا أو قرطاجيا، أو بربريا وهو قيرطه أو سيرتا، وكانت تستحق هذا الاسم، وأقام النوميديون، وأهالي قرطه في المدينة ولا أعتقد أن الفنقيين أو القرطاجيين هم بناة قيرطه بل بناها النوميديون، فالآثار تبرهن على أن هناك تفاعلا حضاريا وإشعاعا قرطاجيا، جرى في قيرطة من خلال التواصل الحضاري الّذي جرى بين القرطجيين والنومديين؛ وأن تبني النوميديين للغة القرطاجية يدل أن القرطاجيين كانت لهم تأثيرات لغوية وحضاريّة"[2]؛ فالتسمية العريقة الّتي أطلقت على المدينة جعلتها محلّ استقطاب من طرف العديد من الأدباء. فيا ترى ما الفضاءات القسنطينية الّتي اعتمدها علاوة كوسة في نصّه؟

زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

يتجاوز الفضاء المعنى الحقيقي المجسّد في أرض الواقع، ليمثّل الأرضية الّتي يهيئها الرّوائي لسير الأحداث؛ فهو يكتسب أهمية كبيرة "لأنّه يتحوّل في بعض الأعمال المتميّزة إلى فضاء يحتوي كلّ العناصر الروائية بما فيها من أحداث وشخصيات، وما بينها من علاقات، ويمنحها المناخ الّذي تفعل فيه وتعبّر عن وجهة نظرها، ويكون نفسه المساعد في تطوير بناء الرواية والحامل لرؤية البطل والممثل لمنظور المؤلف؛ فالمكان تجاوز فكرة أنّه مجرد خلفية تقع فيها الأحداث؛ بحيث أصبح ينظر على أنّه عنصر شكلي وتشكيلي في عناصر العمل الفنّي، وأصبح تفاعل العناصر المكانيّة وتضادها يشكلان بعدا جماليّا في النّص الأدبي"[3]، يعني أنّ الفضاءات المكانية تجاوزت مهمّتها كخشبة لأحداث القصة لتشغل حيّزا آخر يكشف عن دواخل الشخصيات ووجهة نظره؛ فمصطلح المدينة تجاوز الدلالة الجغرافية ليحيل إلى فضاءات معنوية واجتماعية ممثلة إحساس الشخصيات الروائية إلى جانب تجسيد أفعالها وتصرفاتها. وهو ما تبيّن في تصريح الروائي قائلا:

" تسير "أمينة" بتيه المتصوفة، صمت الأبدية، وفقه العارفين في أرجاء مسقط حنينها ومنبت أفراحها، وملاذها الآمن "قسنطينة"، المدينة الأسطورية الّتي ظلت وستبقى كنسر على صخرة شماء، كانت نظراتها تمتد بحنية إلى شرفات العمارات ووجهات المحلات المتبرجة في استحياء، وشوارع المدينة المنتظمة المتداخلة المكابرة في صبر وصمت، تنظر إلى لغو الخطى الجميل؛ وأنغام الرهبة المسائية، وقد بسطت وقعها على صدر المدينة المتناهية في التاريخ، الموغلة في الحضارة، المستشرفة الحالمة، الممكنة المستحيلة، الظاهرة المستترة"[4]. فالتاريخ العريق لمدينة قسنطينة وحضارتها يؤكّدان على أهميّة الفضاءات الّتي اعتمدها الرّوائي في نصّه، والحمولة الّتي ستكشف عنها. ومن الفضاءات الموظفة في الرّواية نذكر:

أ-الجسور المعلقة: إنّ الجسور المعلقة من الفضاءات الراقية في مدينة قسنطينة، بحيث يحمل الجسر بعدا جماليا وفنيّا؛ وعبّر في الرّواية عن قمّة الصداقة ودرجة الحب والاشتياق بين شخصيات الرواية؛ ولقد ربطها الروائي في نصه بالحالة النفسية لشخصيات؛ ويعدّ الجسر أيضا "علامة بارزة من علامات الفضاء الروائي والفضاء المدني الماثل جسر للبوح والافضاء عن عشق قديم وحب متجدد"[5]. ومثّلت الجسور المعلّقة في النص الروائي للعديد من الأحداث، ومن المواضيع الّتي وردت فيها:

"... انت تذكر يا قيس سفركما الجميل المدهش ذات مساء هادئ إلى مدينة قسنطينة الأسطورية بجسورها المعلقة، لسرها الأزلي، بأصدقائك فيها... شوقي ريغي، وافية بن مسعود، نور الدين درويش وهي...

تتشابك أصابعكما وأنتما تسيران معا على الجسر المعلق بين أعماق سحيقة وآفاق طليقة.. تقاسمان المدينة مساءها العطر، تتجهان متعبين إلى الإقامة.. إلى غد كنتما فيه مدعوين إلى حضور صباحية شعرية بقصر الثقافة "مالك حداد"... "[6].

زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

أشار الكاتب في هذا المقطع إلى الصداقة الّتي جمعت بين ثلّة من أصدقاء العلم، الّذين تربطهم محبّة العلم وروح الأدب، ومثّل الجسر عتبة للذكريات الجميلة الّتي تجتاح مخيلتهم وهم متجهون لمدينة قسنطينة في مهمّة علميّة أدبيّة، وكشف فضاء الجسر عن أمرين: الأوّل كان إيجابي أشار إلى قوّة الأسرار الّتي متّنت العلاقة بين الزملاء وجعلتهم أكثر من أقرباء؛ أمّا الأمر الثّاني فعبّر عن الخيبة الّتي اجتاحت بهم وخاصة قيس الّذي يرى فيه مكان موحش يذكّره بعزيز غادره ذات مارس في ربيع حزين، وهذا دليل على ذكاء الكاتب في اللّعب بمضامين الأحداث وعمقها.

وأشار الكاتب إلى ما يحمله الجسر من حمولة تذكارية أباحت عن المكنونات السّاكنة في القلب من اشتياق وحبّ وحنين، وهو ما تبيّن في المقطع الآتي:

"لا تنسي نفسك الآن وأنت تطئين أسفل الجسر المعلق بين سماء تسكنها نظراتك المنكسرة الآن، وأرض تمسح أعماقها السحيقة أورادك الملائكية هذا المساء، تمشين على الجسر باستحياء، تمشين بثبات دائما كرغبتك في الثوران وقد تأججت نار ذكراهم بصدرك...تتراءى لك أطياف من مروا على هذا الجسر "قنطرة الحبال"، مروا عشاقا منتشين واحتوتهم أمكنة لقاءات أبدية، مروا أصدقاء استرقوا لحظات بهجة وحجزوا صورا للذكرى وودعوا، مروا عابرين المدينة طلابا بالجامعة وغادروا أوفياء لمدينة يتفق صخرها حبا.. وتيها، مروا.. ولكن!!!

أسفي.. أسفك يا أمينة حينما جعلوا من الجسر المعلق آخر الأمكنة الدنيوية الّتي تشيعهم إلى الأعماق السحيقة الشبقية منتحرين، مهزومين، منكسرين!!! "[7].

استرجعت أمينة _الأستاذة الجامعيّة_ الذكريات الّتي عاشتها في المدينة منذ أن وعت للحياة، فالسارد عرّف بتلك الطفلة الّتي نقشت مسار حياتها وما تحمله من محبّة في قلبها؛ إنّها التلميذة الّتي زاولت دراستها في المدرسة الابتدائية الّتي خلفت فيها ذكريات الطفولة بكلّ ما فيها من براءة وعفوية، لتنتقل للمدرسة الإكمالية الّتي كوّنت منها صبيّة مراهقة بأحلام جديدة وطموحات بعيدة، وصولا إلى مرحلة الثانوية الّتي كانت فيها جهود عظيمة وطاقات قويّة لتحقق بها نجاحا في شهادة الباكلوريا، ويذكرها أخيرا بأيام الجامعة ومدرجاتها وقاعاتها وجلسات الشعر الّتي يملأها الحبّ والوفاء، ليقف في نهاية الاستذكار على الجسر المعلّق الّذي علّقت فيه الكثير من الأماني؛ والعلاقات الّتي جمعت المحبّين من الأصدقاء، وطلاب الجامعة الّذين فرقت بينهم ظروف الحياة؛ ولم يبق في ذلك الجسر المعلّق إلاّ الوفاء والصدق الّذي كان يجمعهم؛ فرغم السحر والجمال الّذي يميّز الجسر إلاّ أنّه مثل لهم ذكرى للفراق والوحشة والاشتياق.

كشف السارد أيضا عن سحر الجسور المعلّقة، وكذا الطاقة والحيوية الّتي تمنحها لذوي المواهب للتعبير عن أحاسيسهم وما يعيشونه من أحداث في حياتهم اليومية؛ حيث قال:

"جسور قسنطينة المعلقة تغري العشاق بالعبور، وتغوي الشعراء بالبوح، وتراود المهزومين عن سحرها بالانتحار..

ما بين آفاق سحيقة وأعماق شاهقة تظل آمالك معلقة يا أمينة..

أجنحة المدينة تفرش لطلاب العلم في حضرة ابن باديس. وتفرش أجنحة الليل لنبر خطاك عائدة إلى بيتك وحيدة متعددة، بلورة متشظية، رغبة متوقدة جموحة...

المدينة، الشارع، العمارة، البيت، الغرفة، المكتب، الحاسوب، الموقع الصفحة الشخصية بالفاسبوك، الكتابة على حائطك المتهاوي بلغة مؤنثة رقيقة مؤسلبة على جسد فكرتك.. عمقك.. ذاكرتك..."[8].

كانت الجسور المعلّقة ولا تزال محطّ اقبال العديد من الأفراد؛ منهم السّواح الّذين يرتدونها فضولا في اكتشاف جمالها، وما تطلّ عليه من مناظر جذّابة وخلابة تنعش النفس وتريحها؛ ومنهم الفئة الموهوبة الّتي تقصد مثل تلك الأماكن السحريّة، الّتي تمنحهم الطاقة الإبداعية، وتولّد فيهم روح التعبير والوصف الّتي ترافقها المشاعر الرقيقة، والاحساس بأداء المهمة وايصال الرسالة؛ أمّا الفئة الثالثة فهي المهزومة الّتي فشلت في أوّل الطريق؛ بحيث كان الجسر المعلق مكان التعارف وتشكيل الصداقات وعلاقات الحبّ الّتي انتهت في نفس المكان لظروف وأسباب معيّنة.

ب- **قصر الثقافة:** جمعت الرواية بين مجموعة من الفضاءات القسنطينيّة الّتي دارت فيها الأحداث الخاصة بالشخصيات الرّوائية؛ لأنّ المدينة تجتمع في جعبتها العديد من الأحداث منها الاجتماعية والثقافية والتاريخية و...؛ ولهذا اتّخذها الأدباء محور أعمالهم الإبداعية "فالمدينة بالذّات هي المكان الّذي يسع لاستيعاب جدل وصراع التناقضات بكل أطرافها ومحاورها"[9]. ويعود تنوّع الفضاءات الروائية إلى تنوّع الأحداث الّتي مثّلت لها وعبّرت عنها. ولقد كان قصر الثقافة الفضاء الّذي جمع الأصدقاء وزملاء الدراسة بعد فراق طويل، حيث مثّل فضاء الاعتراف وكشف المستور بإعلان الحقيقة وبيانها، فعلى خشبة قاعة قصر الثقافة أعلن عرّاف الحي عن اسمه الحقيقي، والأسباب الّتي جعلته يهجر المدينة ليستقر في ديار الغربة حزينا، أسير الظروف الّتي فرضت عليه؛ ومن بين اعترافاته:

" أنا يوسف.. وهذه قسنطينة الّتي أسرتني حبيبا.. ومذنبا.. لأعوام عجاف من عمري.. ولعام حزن.. آلمني.. حطمني.. أماتني.. ثم أحياني..

أنا يوسف وهذه قسنطينة الّتي منحتني جرحا خالدا.. فكتبت.. انكتبت.. أبدعت في رسم انكساري فكرمت بها اليوم.. كرمت بك قسنطينة أخيرا.. وكنت أويتي حين خانني الملائكة.. وزغرد الشياطين..

فكيف لي أن أنكر جميلك يا جسور.. وأهجرك وأعود إليك لولاها..

... أنا يوسف.. أنا عراف الحي.. أنا صالح بطل روايتي.. الّذي لم يتوقع للحظة أن ترتدي فستان فرحك يا سمية.. وهو بين القضبان.. كيف حلت لك الدنيا.. وامتدت يمناك إلى باقة ورد من عريسك عندما كان سيفك باليسرى يغرس ظهري.. ؟"[10]

مثّلت الفضاءات الّتي عبّر بها علاوة كوسة في نصّه الروائي عن مدينة قسنطينة أيقونة للتعريف بسحر المدينة وتراثها الّذي تزخر به، والّتي اعتمدها ليشير إلى نوعية العلاقات الّتي ربطت بين زملاء الجامعة، الّذين كانوا قامات علميّة لهم بصمات يشهد لها العلم وزملاء المعرفة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف عن بعض السلبيات الّتي أثّرت على حياة الزملاء وفرقت بينهم.

مثل الجسر وغيره من الفضاءات الموظفة في الرواية لفترتين زمنيتين؛ الماضي الّذي كان فترة ممتعة مملوءة بالحب والمشاعر الصادقة، والحاضر الّذي عبّر عن قساوة الظروف الّتي يمرّ بها كل من يوسف وأصدقائه، وهذا نتيجة للتغيّرات والانعكاسات الّتي أثّرت على مجرى الأحداث في حياتهم. فيا ترى عن ماذا كشفت الفضاءات الخاصة بمدينة سطيف؟

2-سطيف مدينة الأسرار والأماني: شملت الفضاءات الخاصة بمدينة سطيف على مجموعة من الأسرار مثّلت وعبّرت عن القضايا الّتي شغلت أذهان الشخصيات الروائية، وهو ما رصده الروائي في قوله:

" كانت مدينة سطيف فاتنة هذا الصباح، تعتدل الشوارع لتستقبل شاعر المدينة الحزين، ترتسم في عيني "زهرة" صورة الحبيب وقد ركن السيارة في موقفها المحاذي لدار الثقافة، سارا معا قلبا إلى قلب، توارِيا عن ضوضاء المدينة..."[11].

أشار السارد إلى سحر شروق الشمس بمدينة سطيف، وجمال المنظر الّذي يخفي وراءه الكثير من الأسرار المخبأة في الصدور، حيث دفنت فيها الكثير من الأمنيات وحطّمت فيها أيضا الكثير من الأحلام؛ ففي هذه المدينة غُيّب أكبر الشعراء الّذي كانت في جعبته الكثير من الأهداف الّتي رغب في تحقيقها؛ غير أنّ الظروف لم تسعفه ولم تهيّئ له أرضية للوصل إلى طموحاته.

ومن بين الفضاءات الموظّفة نذكر:

زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

أ -الفندق: كان فضاء اللّقاء بين زملاء الجامعة الّذين اتجهوا إلى سطيف في مهمّة علميّة؛ حيث مثّل فضاء المشاعر والعواطف الّتي استحضرها الأصدقاء الّذين نزلوا فيه، فكان الجوّ فيه كلّه اشتياق وحنين، وهو ما عبّرت عنه أمينة في المقطع الّذي أورده السارد كالآتي:

" في سكون ليلة مقمرة، خلت أمينة بحاسوبها في شرفة الفندق "سيتيفيس" لتفتح نوافذ بوحها لصديق افتراضي صار حقيقتها المطلقة، وتكتب إليه رسالة دهشة واعتراف عبر موقع تواصل عاطفي جميل تسابقت الأنامل لرسم حيثياته بوساطة لوحة مفاتيح تحفظ السر والوحي معا:

مساء الغربة يا يوسف..

مساء الغياب يا عراف الحي

مساء النبوءات والرؤى الّتي شردتك، ووهبتك إلى أوطان بعيدة...

أنا بمدينتك.. أنا بسطيف العالي...

أنا أقتفي عطرك الّذي مر يوما من هنا..."[12].

عبّرت أمينة في اعترافها عن المشاعر الّتي تكنّها لعرّاف الحيّ، والمسافات والظروف الّتي فرقت بينهم وجعلت حاجز الغربة يمنع لقاءهما، فهي نزلت ضيفة بمدينة سطيف بمناسبة تكريم أكبر شاعر عرف بعراف الحيّ، وكرّم لاختيار روايته "أوردة الرّخام" كأحسن عمل روائي جزائري للسنة. فأمينة لمّحت إلى المكانة العالية والقيمة الّتي منحوها ليوسف رغم غيابه وغربته؛ فاسمه دائما بقي في القمّة وعلى ألسنة الّذين عرفوه كشخص مثقف متعلّم قدّم الكثير في مجاله.

ب- كافتيريا البهجة: كانت الكافتيريا فضاء آخر جمع الأصدقاء على مائدة الذكريات والأسرار المكتومة الّتي تنتظر لحظة الإفصاح عنها، فبعدما التقى الزملاء في الفندق الّذي نزلوا فيه قرروا الخروج لنزهة ليلة بالمدينة، فهذه الأخيرة "اذا اجتمع فيها الليل والمطر المنقطع المتدلل والأضواء الملونة تصبح فردوسا أسطوريا، وإذا كان بها الأحبة مجتمعين بعد غياب فإنّها تنصت في خشوع المريدين وشوق المحبين"[13]، فجمال المدينة وسحرها الليلي تجعل زوارها ينغمسون في مخيلة واسعة تحملهم إلى الزمن الماضي، وتستحضر فيهم كل لحظة جميلة تجعل أعينهم تقرأ ملامح الغير بكلّ ما فيها من حب وأمان...، أما عن الوجهة المقصودة في تلك الليلة فكانت "كافتيريا البهجة" محطة الأسرار الّتي جمعت بين يوسف وأمينة، وهو ما سيبيّنه المقطع الآتي:

زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

"... إلى كافتيريا البهجة حيث كان يفضل يوسف الجلوس.. خسارة إنه ليس معنا..

اقشعر جسد أمينة وكتمت أنفاسها لحاجة في نفسها وهي تخاطب صديقها افتراضيا في سرها:

يوسف.. كافتيريا البهجة...! إنّك صادق يا يوسف.. مثلما بحت لي قبل أيام بعد عناء طويل مع الردود.. تماما مثلما طلبت مني، ها هي صدفة نبيل تجرني إلى مكانك المفضل...

ما بك شاردة البال يا دكتورة؟. خليك معنا، قالها قيس وهو يذكر صديق الآن.. ولا يعلم أن أمينة الشاردة تقف على سر يجهله!!

وصلوا إلى الكافتيريا.. تناولوا أشياء، وفي صدورهم أشياء أخرى، وأمينة تحدق في تفاصيل المكان بدقة ودهشة:

ها أنا يا يوسف أجلس في أول محطة كشفت لي عنها.."[14]

مثّلت كافتيريا البهجة لأمينة الفضاء الّذي دفنت فيه أسرار يوسف، فهي مكان اللّقاء الّذي سردت فيه الأسرار الّتي كتمها يوسف ولازال يكتمها، فاختيار المكان تلك اللّيلة كان من حظّ أمينة الّتي وقفت على ذكريات الماضي، والّتي أضحت مجرّد سيناريو مثقل تحمله في قلبها وعقلها اللّذان أرهقهما الكتمان. إنّ الصدفة جعلت أمينة تعيش لحظة زمنيّة سابقة استرجعت فيها ذكريات جمعتها مع أكبر شاعر أجبرته ظروف الحياة على الغياب؛ غير أنّها تحتفظ بكلّ ما يتعلق به خاصة تلك الأمانة الّتي أودعها إيّاها؛ يعني أنّ أمينة احتفظت بإنسان غائب وحاضر في نفس الوقت، حاضر بأسراره وذكرياته وغائب بجسده وروحه.

3-**البعد المضمر للفضاءات الرّوائية:** تعدّ الفضاءات المكانية في أغلب الأحيان مؤشرا لاستنطاق فضول الإنسان، وتفجير طاقاته الإبداعية خاصة تلك الفضاءات الأثريّة؛ والفضاءات الّتي تحتوي ذكريات الأفراد سواء الإيجابية منها أم السلبية ؛ ولقد أشار عز الدّين إسماعيل إلى العلاقة التي تربط الإنسان بالمكان بقوله "ولعله من الواضح أنّ الشعور بالوحدة ليس مجرد أثر لانقطاع علاقة عاطفية، وإنما هو انعكاس كذلك لوجه الحياة بالمدينة، ويتبع هذا الشعور بالضياع فالإنسان في المدينة وحيد ومضيع"[15]. وهو الأمر الّذي تبيّن لنا في النّص الروائي، وبالخصوص مدينة قسنطينة الّتي تربطها علاقة قويّة بشخصيات الرواية الّتي تنوعت بصماتها فيها، وهو ما سيوضّحه المقطع الآتي:

" يا مدينة تنام على ذاكرة تشعّ تاريخا.. وإرثا.. وأحلاما يا مدينة معلقة بين أرض وسماء.. تخبئ في صمتها بوح العابرين في أمانة.. ووفاء.. تراك تنامين غدا.. حينما يجيئك من أقصى الجرح رجل يسعى.. يقول: يا أيّها الغاوون

العارفون اتبعوا الشعراء.. إنهم غيبوا عن ممالك الفلاسفة.. وبرغم ذلك.. سيحضرون.. يسجلون غيابهم بوحا.. رمزا.. إماءات ويرحلون كعادتهم بصمت الأبدية وكبرياء الزمن..

أنا هارب منهم إليك.. أنا هارب منهم إليك يا قسنطينة

حينما كنت... وصرت وستظلين إلى الأبد عاصمة للصمود والتاريخ والثقافة..

-تزينت قسنطينة هذا العام... لكل من سيأتي.. سيعيش الثقافة والتاريخ... سيمر عبيرا على كل شبر من حضارتها.."[16].

تبيّن لنا من خلال الاعتراف الّذي أدلى به السارد مدى تعلّق يوسف _عراف الحيّ_ بمدينة قسنطينة، والذكريات الّتي تحياها في قلبه، فهو الشاعر الّذي كتب عنها وجعلها موضوعا للكثير من أعماله الإبداعيّة؛ الّتي رصدت مختلف الأحداث الّتي عاشها في المدينة منذ أن كان طالبا جامعيّا، هذا إلى جانب الأسرار الّتي حَمَّلَ أمينة مسؤولية كتمانها، فظروف الحياة أجبرته أن يعيش بعيدا عن مدينة احتوته باحث علم وعاشق وشاعر؛ ليجد نفسه بعيدا أرهقته العزلة وديار الغربة الّتي منعت عليه عيش الأفراح بكلّ تفاصيلها.

كما اشتملت أيضا مدينة سطيف على أبعاد مختلفة كشفت عنها اعترافات الشخصيات الروائية؛ فهي كذلك من بين المدن الجزائرية الّتي تبهر زوارها بجمالها وسحرها؛ وما تمتلكه من مرافق جعلت ناسها وسواحها ينبهرون بها؛ فحتّى هي كان لها نصيب من الذكريات الّتي جمعت زملاء العلم والمعرفة، حيث قال السارد:

" وعندما تشرق الشمس على مدينة سطيف فإنّها تكون قد واعدت سرا ما هنالك، في غفوة قمر يستريح خلف الغمام..."[17]. فهنا إشارة إلى الأسرار الدفينة في مدينة سطيف الّتي كان لها صدى أيضا في حياة الأصدقاء، وهو ما تبيّن أكثر من تعقيب السارد قائلا:

"... وكانت أمينة معهم ضيفا عزيزا جاء من أقصى التاريخ يسعى إلى مدينة (عين الفوارة) الجميلة... وفي نفسها إحساس بأن مرافقيها في هذه الجولة الليلية على مشارف أسرار أخرى بهذه المحبة والحميمية، كانت تنظر أعينهم جميعا فلا تعثر إلا على الوداعة، الحب، الأمان، الإيثار، ملفوفة بدعابات جميلة يصنعها نبيل المتكئ على براكين من أحلام وأمنيات بتحد وعزيمة..."[18].

يتبيّن لنا من خلال المقاطع البعد الإيحائي الّذي احتوته الفضاءات المستحضرة في النّص الروائي؛ فالسارد أخرج الفضاءات من موقعها الحقيقي وأدخلها الفضاء الخيالي الّذي تكوّن لدى الشخصيات؛ مما جعل الفضاءات ترمز إلى العواطف والأحاسيس الّتي احتوتها القلوب وسكنت فيها؛ حيث رمز كلّ من الجسر

زاهية بوجناح / الصفحات: من 121 إلى: 132
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

وكافتيريا البهجة إلى قوّة الصداقة الّتي جمعت بين أمينة ويوسف، وهو ما توضّح أكثر في ثقة يوسف بأمينة وايداعها أسراره.

تحتوي المدينة إذن فضاءات مغريّة وساحرة مما جعلها وجهة اقبال العديد من الأدباء واعتمادها في أعمالهم الإبداعيّة؛ فالمدينة هي "الحياة بتعددها وتنوعها، هي الأمكنة والبشر... والمدينة طريقة النّاس في النظر إلى الأشياء وطريقة كلامهم، المدينة هي الأحلام والخيبات الّتي ملأت عقول النّاس وقلوبهم"[19]. فاختيار الأدباء للفضاءات الّتي تدور فيها أحداث الحكاية تكون منعكسة لرؤى تلك الشخصيات، لأنّ الفضاء الرّوائي "بمثابة بناء يتم إنشاءه اعتمادا على المميزات والتحديات الّتي تطبع الشخصيات، بحيث يجري التمديد التدريجي ليس فقط لخطوط المكان الهندسية، وإنّما أيضا لصفاته الدلالية ذلك لكي يأتي منسجما مع التطور الحكائي العام"[20]. واستحضار فضاءات المدينة يكون بمحتواها الدلالي الإيحائي أكثر من موقعه الجغرافي، حقيقة أنّ هذا الأخير له دور فاعل في تشكيل أحداث الرواية وتحرّكها؛ لكن تبقى أسرار وجمال تلك الفضاءات من العناصر المهمّة في تكوين البنية الفنيّة للنّص الإبداعي؛ وعليه نستنتج أنّ المدينة "ليست آلة تدور في حلقة مفرغة، إنّها تلم فضاءاتها الطبيعية والمادية لتنسج ضلالا للشخصيات والأفعال وتملأ الفضاء الرّوائي بعلامات واستعارات فنيّة"[21].

نتائج:

- لقد وقع اختيارنا على رواية "ريح يوسف" لما للفضاءات المعتمدة فيها ورموزها؛ وما احتوته من إشارات ودلالات أسهمت في تكوين البنية الفنيّة للنّص الروائي، وتوصلنا من خلال دراستنا إلى مجموعة من النتائج سنلخصها في النقاط الآتية:

-تعدّ المدن الجزائرية محلّ اقبال الأدباء والكتابة عنها؛ لما تمتلكه فضاءاتها من سحر وجمال إلى جانب التراث التاريخي الثقافي الّذي امتازت واشتهرت به. ولقد وقع اختيار الرّوائي الناقد علاوة كوسة على مدينتي قسنطينة وسطيف خشبة تدور عليها أحداث النّص الرّوائي؛ لما لها من أبعاد حضارية وسياحية.

-تنوّع الفضاءات الّتي استعان بها الرّوائي في النّص بين فضاءات مفتوحة وفضاءات منغلقة؛ فالأولى _الفضاءات المفتوحة_ كشفت عن الانفتاح الّذي تمتاز بها الشخصيات الروائية، الّتي حصرها في فئة زملاء الجامعة والفئة المتفوقة في المجتمع؛ إلى جانب انفتاح صدورهم لاحتواء الصداقة وهموم بعضهم البعض، أما الفضاءات المنغلقة فهي إحالة إلى تكتم الزملاء على أسرار بعضهم البعض وحفظ الأمانة.

-لم تقتصر الفضاءات الّتي استحضرها الرّوائي في نصّه على ما تحتويه في الواقع؛ بل مزجها بالخيال الواسع ومنحها بعدا رمزيا تجسّد في احتواء أماني وأحلام الشخصيات الرّوائية إلى جانب الأسرار والعلاقات الّتي جمعت زملاء العلم. فالفضاءات كانت رمزية أكثر منها تعريفا للموقع الجغرافي.

قائمة المصادر والمراجع:

- ✓ إبراهيم روماني، أسئلة الكتابة النقدية (قراءة في الأدب الجزائري الحديث)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، د ط، الجزائر، د ت.
- ✓ أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، د ط، الجزائر، 2007م.
- ✓ باديس فوغالي، دراسات في القصة والرواية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، د ط، أربد –الأردن، د ت.
- ✓ بهيجة مصري إدلبي/ عامر الديك، السيرة الذّاتية في الخطاب الرّوائي العربي، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط 1، عمان- الأردن، 2011م.
- ✓ حسن بحري، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2009م.
- ✓ حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيّل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، د ب، 2000م.
- ✓ رزاق إبراهيم حسن، المدينة في القصة العراقية القصيرة، دار الحرية لطباعة، د ط، بغداد، 1934م.
- ✓ -عبيدي مهدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه "حكاية بحار-الدّفل-المرفأ البعيد"، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م.
- ✓ علاوة كوسة، ريح يوسف، منشورات فاصلة، ط1، قسنطينة الجزائر، 2017م.
- ✓ مليكة حيمر، صورة المدينة العربيّة في ظلّ المحنة الجزائريّة قراءة في ثنائية الطّاهر والطار الشمعة والدهاليز والوليّ الطّاهر يعود إلى مقامه الزّكي، مجلة إشكالات في اللّغة والأدب، مجلد 09، العدد 01، المركز الجامعي تامنغست، الجزائر، 2020م.

هوامش البحث:

[1]- مليكة حيمر، صورة المدينة العربيّة في ظلّ المحنة الجزائريّة قراءة في ثنائية الطّاهر والطار الشمعة والدهاليز والوليّ الطّاهر يعود إلى مقامه الزّكي، مجلة إشكالات في اللّغة والأدب، مجلد 09، العدد 01، المركز الجامعي تامنغست، الجزائر، 2020م، ص262.

[2] - أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، د ط، الجزائر، 2007م، ص 129.

[3] - عبيدي مهدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه "حكاية بحار-الدّفل-المرفأ البعيد"، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م، ص 35- ص 36.

[4] - علاوة كوسة، ريح يوسف، منشورات فاصلة، ط1، قسنطينة الجزائر، 2017م، ص 37.

[5] - باديس فوغالي، دراسات في القصة والرواية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، د ط، أربد –الأردن، د ت، ص 206.

[6] - الرواية، ص 25- ص 26.

[7] - الرواية، ص 39.

[8] - الرواية، ص 40.

[9] - رزاق إبراهيم حسن، المدينة في القصة العراقية القصيرة، دار الحرية لطباعة، د ط، بغداد، 1934م، ص 10.

[10] - الرواية، ص 206- ص 207.

[11] - الرواية، ص 21.

[12] - الرواية، ص 106- ص 107.

[13] - الرواية، ص 98.

[14] - الرواية، ص 100.

[15] - إبراهيم روماني، أسئلة الكتابة النقدية (قراءة في الأدب الجزائري الحديث)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، د ط، الجزائر، د ت، ص 77.

[16] - الرواية، ص 185- ص 186.

[17] - الرواية، ص 89.

[18] - الرواية، ص 99.

[19] - بهيجة مصري إدلبي/ عامر الديك، السيرة الذّاتية في الخطاب الرّوائي العربي، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط 1، عمان- الأردن، 2011م، ص 105.

[20] - حسن بحري، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ص 30.

[21] - حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيّل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، د ب، 2000م، ص 143.